سعد الصميم

بقلم الاستاذ عباس محمود العقاد

الاستاذ العقاد أديب مشهور التصق بفقيد مصر المغفور له سعد باشا في السنوات الاخيرة من عمره ووقف على سياسة الوفد التي كان ينفح عنها كل يوم بمقالاته الافتتاحية في البلاغ . وقد رغبنا اليه أن يتحفنا بمقال عن الفقيد فكتب لنا هـذا المقال الفريد الذي نعتقد انه من أحسن ما كتب عنه [المحرر]

(١) اللقاء الاول

لقيت «سعد زغلول» أول مرة صباح يوم الخميس الحادي والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٠٨ بمكتبه في نظارة المعـارف العمومية يوم أن كانت في ديوانها المعروف بدوب الجوامين ، وكنت يومئذ أعمل في تحرير « الدستور » زميل اللواء الذي كان يوالي الحملة على سعد وينتقد سياسته في المعارف أشد انتقاد ، وكنت في التـاسعة عشرة أي في تلك السن التي استولى عليها اللواء وجعلها من قرائه وجنده ومصدقي مدحه وهجائه ، ولكني كنت أعجب بسعد وأرجو لمصر خيراً كثيراً على يديه ولا يسيغ طبعي أن يكون مثل هذا الرجل ممن يخون عهـده وينسى واجبه وينقاد على غير بصيرة لامر الموظفين الانجليز في النظارة كما كان يقال عنه في ذلك الحين ، وزادني ثقة به انه كان من أصحاب « الاستاذ الامام » الشيخ محمـد عبده وكنت لكتابته متتبعاً وبسيرته جد معجب ، فلما اشتدت الحملة عليه وشاعت شيوعها بين قرائها رأيت من الحق عليَّ أن أدفعها عنه وأمهد لاظهار الحقيقة بما في وسعي ، فلم أجد أفضل من حديث مع الباشا مدعوم بالوثائق والبراهين التي تدفع اللبس وترفع الغشاوة عن نظر السواد ، وقلت في مقدمة ذلك الحديث حين نشرته : « اصبحوا ـ أي القراء ـ يتساءلون عن الضجة القائمة حول التعليم ومبلغها من الصدق والاخلاص ، لان عليها يتوقف مستقبل أبنائهم وذويهم فاذا بهم يسترشدون ولا يرشدون . لذلك أردت ان أرجع الى رجل اعتقد فيه الصدق والغيرة على مصلحة هذا البلد وأرى ان في قوله خير حاسم لهذا النزاع الذي استطار شرره واستفحل ضرره ذلك الرجل هو سعد زغلول باشا ناظر المعارف »

ولم اكن رأيت الرجل قبل ذلك ولا نظرت إلى صورته ولا عرفت شيئاً عن شخصه غير ما سمعت عن عدله في القضاء واشتراكه في الثورة العرابية وملازمته الشيخ محمد عبده وجمال الدين الافغاني ، فغدوت الى مكتبه في موعد الحديث وانا أصوره لنفسي في الصورة التي تطابق ما سمعت وعلمت من خلاله ، والعجيب ان الصورة الجثمانية لم تخطىء الظن في الكثير من هيئته وسمته . إلا أنني كنت أتخيله ملتحياً وهو لم يكن كذلك ولا احسبه ارسل لحيته في ماضي

حياته ، فلما دخلت المكتب استقبلني واقفاً واشار الى كرسي أمامه فجلس وجلست ، وسألني أعرفت الشيخ محمد عبده ؟ قلت نعم ! قرأت رسائله وتفسيراته وترجمة حياته . قال : هل رأيته ؟ قلت رأيته مرتين . قال اين ؟ أفي الازهر ؟ قلت : لا ، بل في اسوان . قدمني اليه استاذي[1] فناقشني في علومي المدرسية وبعض الآراء العامة ثم سمعت منه بشرى طيبة

قال : ماذا سمعت منه ؟

قلت : انه التفت الى الاستاذ وقال له وهو يربت على كتفي « ما أجدر هذا ان يكون كاتباً بعد » ثم أوصاني ألا أقنع من العلم بوظيفة الحكومة

فتبسم الباشا وقال : أرى ان نبوءة الامام تتحقق . واستطرد الى كلام عن الشيخ يثني عليه ويحمد مناقبه ، وانما سألني الباشا ذلك السؤال لانني ذكرت في الخطاب الذي طلبت فيه محادثته انني أكبر جماعة الامام ان يضل لها قصد في الوطنية وان كثرت حولها التهم والوشايات

ثم جرى الحديث بيني وبين الباشا في موضوعات شتى . ولكنه كان حديثين نشر أحدهما والآخر لم ينشر لانه ورد عرضاً في أثناء الكلام ولم يكن هو المقصود بالمحادثة ، ولان الباشا نبهني الى مواضع منه لا يجب ان تذاع في الصحف ، واذكر الآن من كلماته التي لم أنشرها أنه أثنى على مصطفى كامل ووصفه بالجد والاخلاص ولكنه انكر الضجة التي قامت بعده ووصفها بانها « كفورة الفازوزة لا تلبث ان تعلو حتى تهبط »

وجاءت مناسبة في عرض الحديث فعلمت انه يلقى مشقة في تغيير عادات الموظفين الاجانب والوطنيين على السواء ، فالاجانب تعودوا أن يستأثروا بكل شيء والوطنيون تعودوا أن يسلموا في كل شيء ، وربما منحهم السلطة وهم يتهيبون استعمالها ويرجعون بها الى الاجانب عن رغبة وطواعية ، ومن حوادث العناء الذي لقيه من الموظفين الاجانب ان مدير المكتبة الخديوية - وكان المانياً - أبى ان يمتثل أمراً أصدره اليه فكرر الباشا الامر فأصرّ المدير على الاباء . أرسل اليه الباشا إنذاراً كالذي يرسل الى صغار الموظفين فكبر على الرجل ان يعامل هذه المعاملة ولجأ الى الوكالة البريطانية لانه كان أشبه شيء بموظف دولي في الحكومة المصرية اذ كان منصبه يحفظ للالمان باتفاق عرفي متفاهم عليه ، وكان من أصدقاء البلاط الالماني وله دالة على الاسرة الامبراطورية في برلين . فتعقدت المسألة وأبدت الوكالة البريطانية رغبتها في سحب الانذار ، فكان جواب الباشا انه يخير المدير بين أحد أمرين : قبول الانذار او الاستقالة ، وانه لا يستطيع أن يعمل في نظارته اذا لم تنته المسألة بأحد هذين الامرين . فأذعن المدير وعدل في تصرفاته بعدها عن دعوى الاستقلال بالمكتبة والعمل فيها كما يشاء هو لا كما تشاء النظارة

(١) هو الشيخ محمد فخر الدين أستاذ اللغة العربية بالمدرسة الخديوية

أما الحديث المنشور فلا شأن لنا به هنا في جملته ولكني أنقل منه جواباً واحداً على سبيل المثال لاشياء كثيرة . منها أسلوب الرئيس في الحديث وفي سرد الحجج وتفنيد المزاعم ، ومنها بيان الفرق بين موقف الرئيس من الجمهور قبل عشرين سنة وموقفه منه بعد ذلك ببضع سنوات ، ومنها المقابلة بين الجو الذي كانت الجامعة المصرية فيه تبدو للجمهور منكراً يحارب بأقلام « الوطنيين الغلاة » وبحث الامة عن نقض اليد منه وترك الاكتتاب له نكاية بسعد زغلول ـ وبين الجو الذي تطور فيه هذا المعهد الكبير ولكن لا تزال فيه اثارة من الحملات تشاب بالشخصيات في شؤون السياسة والتعليم ، ومنها بيان الغرض الذي رمى اليه الرئيس بانشاء الجامعة لكي نفهم الآن معنى ملاحظاته التي أبداها عليها في الزمن الاخير

سألته : هل كنتم تعلمون أيام توليتم رياسة الجامعة انها ستقرر تدريس الآداب الانجليزية والفرنسية عند تأسيسها ؟

قال : « اننا لم نبحث اذ ذاك في التفصيلات ولكن الذي كنا نرمي اليه من انشاء الجامعة وأعلناه للامة انها تعلم التلاميذ ما لا يتعلمونه في المدارس العالية وآداب اللغتين الانجليزية والفرنسية مما يدخل في هذا الباب . ولكن لجنة الجامعة لا تكتفي بذلك الا في أول الامر وقد أشرت عليها باضافة آداب اللغة العربية الى هاتين المادتين وهي تتناقش في ذلك الآن

« وقد علمت ان حضرات أعضاء اللجنة يبذلون كل الجهد في ابلاغ هذه الجامعة أقصى ما تبلغ اليه . وكل من يعلم من هم أعضاء هذه اللجنة يثق ثقة تامة بنجاح المشروع على ايديهم وان من الغريب أن يكون في الناس من يثبط همم العاملين والمكتتبين لهذا العمل الجليل

« ان الهمم فاترة من طبيعتها فليست هي في حاجة الى من يثبطها ، ولكن هذه الاقوال ربما دفعت الخجول الذي تحمله الغيرة على الاقتداء بامثاله الى قبض يده عن الاكتتاب فان فيها مسوغاً يبرر عمله ويظهره في أعين الناس بمظهر الوطني الغيور على مصلحة بلاده . يقولون ان الجامعة وقعت في أيدي الموظفين فانتشلوها منهم . ولكن ألا يتدبرون في عاقبة ذلك ؟ من يقوم مقام رشدي باشا وزكي بك وعلوي باشا والمسيو ماسبرو من غير الموظفين اذا عولنا على انقاذ الجامعة من يد هؤلاء وتسليمها الى غيرهم ؟ لست أنكر ان الجامعة كما هي الآن ليست كجامعات اوربا ولكن الحالة الحاضرة تقضي علينا بالابتداء بالبداءة لا بالنهاية . فاذا ما كانت لنا اليوم جامعة صغيرة فغداً تكون كبيرة ولا يبعثنا كونها كذلك على احتقارها ونفض أيدينا منها لان في ذلك جناية كبرى ونحن في حاجة الى ما هو دون الجامعة بكثير

« أذكر انه لما انشئت الجمعية الخيرية الاسلامية قام بعضهم واستضعف شأنها لانها نشأت صغيرة كما ستنشأ الجامعة ، فما هي الا سنوات قلائل حتى اتسعت دائرتها وأخصب موردها وكثر

عدد مدارسها حتى بلغ ما تراه . ولو ان القائمين بها جبنوا أمام الانتقادات لقبرت في المهد ولم تبلغ ما بلغته الآن

« وفضلاً عن ذلك ان المال الذي جمع الآن لا يفي بالحاجة ، لأن ستة وعشرين الف جنيه لا تكفي لانشاء جامعة كبرى كجامعات اوربا . هذا لو دفع كل مكتتب ما تبرع به ولم يقتصر الامر على العشرة الآلاف التي دفعت حتى الآن . ولو قدرنا ما ينتجه هذا المبلغ باجمعه في السنة لما زاد على الف جنيه مصري وهو ما لا يكفي للانفاق على الجامعة في حالتها الحاضرة. كل هذا والذين يريدون إخراج الجامعة من قبضة الحكومة قد يجهلون انها دفعت مرة واحدة خمسة أضعاف ما دفعه المتبرعون في أنحاء القطر المصري بأجمعه . وليس هذا كل ما أمدت به الحكومة هذه الجامعة فان اعتبارها لها مدرسة منتظمة وقبول شهادتها بين بقية الشهادات المدرسية ينشط الناس الى الاقبال عليها اقبالا لا تظفر بمثله اذا كان الغرض منها مجرد تحصيل العلم وتوسيع العقل . وربما لا تنسى ان بعض هؤلاء كان يطلب من الحكومة اعانة المشروع مادياً . فرفضهم الآن اشرافها عليه بعد ان أدت الحكومة ما طلبوه منها يعد من الغرابة بمكان ويدل على تناقض لا يمكن الجمع بين أطرافه

« وهب ان اشراف الحكومة على الجامعة مضر بها كما يقولون أفهذا يحملنا على حض الناس على عدم الاكتتاب واسترداد ما تبرعوا به ؟ لا أظن ذلك . لأن انقاذها من يد الموظفين وتوسيع نطاقها كما هي عليه الآن من الممكنات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكناً بكثرة المال والمتبرعين فهي في هذه الحالة أحوج الى المال منها وهي بعيدة عن الحكومة ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فان يبلغ الى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحكومة الى الأبد . فمن العبث على كل حال العمل على إسقاطها وحرمان البلاد منها

« أقول هذا وأنا على يقين من ان الحكومة لا تقصد سوءاً بهذه الجامعة ولم تفكر في إعاقة سيرها ، وان مراقبتها لها على هذه الصورة تفيدها فائدة قد لا تيسر بغير ذلك . وأود لو نفيت كل ريبة بشأنها من الاذهان فانها على أي صورة ظهرت معهد علمي يفيد البلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه »

هذا جواب سعد ناظر المعارف يكاد يكون منقولا بنصه . فقد كتبته على أثر خروجي من عنده والفاظه عالقة بسمعي ومعانيه واضحة في ذاكرتي ونقط الحديث مدونة في مفكرة معي ، فاذا وعيت هذا المثال فقد وعيت سعداً محدثاً ومحامياً وخطيباً وباحثاً في مختلف الشؤون . يلم باطراف موضوعه ويعيء حججه وينزل كل منها في موضعه ولا يدع شاردة تحوم في الذهن الا لحقها بحجة سابغة ونظرة ثاقبة ، وهو يقصد في تعبيره هذا القصد البليغ حتى في مزاحه وسوءات سخره ، وينتقل بك من قضية مسلمة الى قضية مسلمة كأنها الحقائق الهندسية تترقى

من البسيط الى المركب بغير ما شطط ولا مجهدة . فاذا قرأت قوله « ان انقاذ الجامعة من الموظفين وتوسيع نطاقها عما هي عليه الآن من الممكنات وليس من المستحيلات ، وانما يكون ممكناً بكثرة المال والمتبرعين ، فهي في هـذه الحالة أحوج الى المـال منها وهي بعيدة عن الحـكومة . ومهما يكن من مخامرة اليأس للنفوس فان يبلغ الى درجة يجزم معها بأن الجامعة لن تفلت من يد الحـكومة الى الابد . فمن العبث على كل حال العمل على إسقاطها وحرمان البلاد منها » أو قرأت قوله : « ان الجامعة على أي صورة ظهرت معهد علمي يفيد البـلاد ظهوره بقدر ما يضرها احتجابه » فأنت أمام حقائق كأنها حقائق اقليدس في نظرياته أو كأنها جيش منظم يزحف على خصمه كتيبة بعد كتيبة ولا ينتقل خطوة من مكانه الا وهو على امان من الموقع وثقة من التقدم . وذلك شأن سعد في كل حديث حضرته بعد ذلك حتى أحاديثه على المائدة وفكاهاته في أوقات الفراغ

خرجت ذلك اليوم وفي نفسي صورة وافية للمصلح الذي كنت أعجب به على غير رؤية ، فعرفت سعداً رجلا مهيب الطلعة قوي العارضة فصيح العبـارة يملأ الناظرين والسامعين ثقة وتوكيداً ويشعرهم بقدرته ويشعر هو بتلك القدرة ويعتد بها مفطوراً على ذلك في غير صلف ولا تكلف . وتسمع حجته الدامغة في صوته الشجي فتجد للمنطق عذوبة الفن وسلاسة التلحين بل تسمع سليقة الرجل كلها تتحدث اليك عن يقين لا ينتهي عندك إلا الى يقين . فهو في كلامه وعمله شيء متسق منسجم كامل تقبله جملة او تدعه جملة ولا تحس عنده بنشوز او تردد ، وقد كان عند ما قابلته المرة الاولى يمشي الى الخمسين من عمره ولـكني لو سهوت عن العيان لحظة لحسبته في عشرة الثلاثين

(٢) بعد الثورة

دارت الايام دورتها واعتزل سعد الحـكومة ورشح نفسه للجمعية التشريعية وتجرد لقيادة الحركة الوطنية ونفي من مصر وعاد اليها ثم نفي منها مرة أخرى وعاد من المنفى ولم القه في خلال ذلك كله إلا مرتين : الاولى حين خطر لي ان انتظم في بعثات الجامعة المصرية وأردت ان يكون الامتحان مباحاً لجميع الطالبين ، والثانية حين قدمت اليه ديواني الثالث الذي أهديته اليه ، ثم اتصلت المقابلة من سنة ١٩٢٤ اتصالا لا تقطعه إلا فترات قليلة من سفر أو مرض او نحو ذلك . فما تغيرت الصورة الاولى الا بما أضاءها من وهج الحركة الوطنية وفخار الفداء وحماسة الاعجاب والاجماع . فلست أزعم أنني عارض على القراء صورة لسعد يستغربونها أو لا يحيطون بجوانب خطوطها . فان سعداً أوضح العظماء صورة في اخلاد هذه الامة وقلما عرف زعيم كما عرف سعد في زمانه وبين أبناء جيله ، ولـكني أظن ان الخطوط الدقيقة في تلك

الصورة قد تخفى على الكثيرين وان فيما سأرويه ـ مما وقع لي وشاهدته ـ تعديلا طفيفاً لبعض ملامحه وصفاته التي يعرفها جميع عارفيه

(٣) الصلابة

أشهر ما اشتهر به سعد الصلابة والعناد . وسعد كان ولا ريب صلب الارادة عنيداً فيما يعتقد أنه صواب . وهو رجل خلق ليأمر ويطاع فلا صبر له على اللجاجة والمحال . غير ان الناس يضيفون الى هذه الصفة ما ليس منها ويقبلون من نوادرها ما يحتاج الى تصحيح

فمن ذلك حكايتهم التي يتناقلونها عن المناقشة بين سعد والخديوي في مسألة « مدرسة القضاء » وانه رحمه الله ضرب المنضدة بيده واحتد في الرد على الخديوي وهو في مجلس النظار . . . فحكاية ضرب المنضدة غير صحيحة وانما الصحيح فيما أنبأنا به دولة الرئيس ـ وهو يقص علينا قصة تلك المدرسة ـ انه شاهد من الخديوي ميلا ظاهراً الى رفض المشروع بعد ان شجعه على المضي فيه ورآه يأبى عليه المناقشة والشرح أمام زملائه النظار . فاستمر الباشا يشرح مشروعه وجهر بأنه يفهم ان المناقشة حرة ويحب ان يعرف المانع من تنفيذ المشروع

قال رحمه الله بفكاهته المعهودة : وكنت قد انتقلت من القضاء الى النظارة « بعبلي » ولا أدري ان هذا الكلام يغضب الخديوي ويثقل وقعه عليه . فلما سمع أصحابنا النظار مني هذه اللهجة أيقنوا انني لا أقدم عليها الا وأنا مؤيد بقوة خفية ووهموا ان لورد كرومر يريد انشاء مدرسة القضاء على الرغم من جميع العقبات ، فأجازوا المشروع بالاجماع وبقي الخديوي وحده معارضاً فيه ! والحقيقة ان لورد كرومر لم يفاتحني في المسألة الا بعد أن سمع بما دار بيني وبين الخديوي من المستشار المالي الذي كان حاضراً تلك الجلسة

انما كان يضجر سعد من المناقشة في حالة واحدة لم أشاهده غاضباً في حالة سواها . فقد علمت عادته في تبسيط المسائل وتفصيل وجوهها وتقريبها من البداهة بالبرهان الصادع والعبارة الجلية ، فاذا حادثه من لم يتعود هذا النسق من البحث أو من يضمر غرضاً غير الاقتناع بالحجة الظاهرة بدا عليه الضجر وتكدر من ضياع الوقت في غير طائل

ولقد بلوت حلمه في مسائل كثيرة تدل على سعة الصدر والرغبة الصحيحة في الاقناع . لقيته بعد خطبة العرش الاولى وكان الوفديون وغير الوفديين مختلفين في شأنها يكتفي بعضهم بما قيل ويطلب بعضهم المزيد من الايضاح . وكان في المجلس صاحب المعالي فتح الله بركات باشا والاستاذ محمود فهمي النقراشي والاستاذ عبد القادر حمزة . فسألني دولته :

ما رأيك فيما يقال عن خطبة العرش ؟

قلت : رأيي يا دولة الرئيس انها كان يمكن أن تكون أوضح مما هي عليه

قال : وهل لا ينطبق هذا على كل كلام ؟

قلت : بلى ! ولكن اذا تساوى الوضوح وغيره في جميع الاعتبارات فرأيي يا دولة الرئيس ان الوضوح أولى بالتفضيل

فلبث رحمه الله نصف ساعة يناقشني في رأيي بلا ضجر ولا استياء . ومضت فترة بعد ذلك ، وانتقل الكلام الى شأن خاص فأصغى اليه أحسن اصغاء . ثم سألني : ولماذا تحاسبني أنا في هذا ولست أنا المسئول عنه ؟

قلت : لان دولتك وكيل الامة والمسئوول عن عمل الآخرين

فضحك رحمه الله طويلا . ثم قال : لو حاسبني كل فرد في الامة حسابك يا فلان لعجزت عن اعباء هذه الوكالة !

قلت وفي نفسي غضب أغالبه : يا باشا ولكن ليس كل فرد في الامة عباس العقاد ! فتبسم مؤمناً وقال: نعم ! ليس كل فرد عباس العقاد . صدقت !

ولما كتبت مقالي في البلاغ عن تكريم النوابغ بعد الاحتفال بأحمد شوقي بك بلغني انه عتب عليَّ وصرح بذلك لبعض جلسائه ، وقد زرت دولته بعد أيام فأشار الى ذلك المقال في أثناء الحديث وهو يقول : انني لا أعترضك في رأيك ولكني كنت أنتظر ان تعفي الرجل لأجل هذه المناسبة (وكان بعضهم قد توسل اليه أن يقول كلمة في تكريم شوقي بك فأجاب رجاءهم ووجه خطاباً الى لجنة التكريم تلي في بداية الاحتفال)

قلت : يا باشا ما أحسب ان في مصر انساناً يحق له أن يحتمي بالوفد مني ، وأردت ألا أجدّ في الجواب فقلت أيضاً : ان دولتكم تسألون الناخبين اذا رشحتم لهم أحداً هل يرتضونه نائباً عنهم أو لا يرتضون ؟ وها أنتم ترشحون لنا معشر الشعراء أميراً ولا تسألوننا كما تسألون الناخبين ! قال متلطفاً : اذن انت قاصد ؟ وأخذ في كلام عن التقلب والاخلاق وعن الادب والادباء لا يتسع له المقام

ولست أذكر مرة واحدة كلفني فيها الباشا أو كلف أحداً امامي أن يكتب فكرة يمليها عليه . وانما كان يستطلع رأيه ويحاوره فيه فاذا اتفقا قال دولته عند ذلك : هذا موضوع جدير بأن يكتب فيه ، أو كلمة من هذا القبيل

(٤) الصراحة والاستقامة

لو لم يشتهر سعد بالصراحة لاشتهر بالدهاء . فان كثيراً من الموصوفين بالحيلة والحنكة لا يعلمون ما يعلمه من طبائع الامم ودخائل الرجال ولا ينفذون نفاذه الى بواطن الامور وأسرار المعضلات ، ولكن الصراحة غلبت عليه ففسي الناس فيه صفة الدهاء

أما صراحة سعد التي عرفتها في مسائل شتى فهي نوع من الانفة وإباء الضيم ، يكره أن يخدعه أحد وهو صامت يكتم ما في نفسه . وقد سمعته مره يقول لصاحب المعالي فتح الله بركات

باشا : ان هؤلاء الناس يستغفلوننا وأنا لا أقبل أن أستغفل . يعني جماعة خرجوا على الوفد ثم عادوا اليه بعد أن تبدلت الاحوال . فقال فتح الله باشا : انهم يا مولاي يتزلفون ولا يخطر لهم في بال أن يسموا عملهم هذا استغفالاً ، فكان دولته يعالج مشقة كبيرة في الاغضاء عن هذا المسلك ولا يسمح لاحد من أولئك المرتدين أن يحاول الاعتذار

ولما أبدى رغبته فجأة في تأليف الوزارة بعد الانتخابات الاخيرة لم تكن الوزارة من همه كما يعلم أقرب المقربين اليه ، وانما أراد أن يقف الموارين موقفاً صريحاً وألا يشعر في نفسه بالاضطرار الى « تفويت » ذلك الرياء

وكان اذا جاء أمر من الامور على غير ما يعلم قال ما يعلمه في كل مقام . ذكر له صاحب الجلالة الملك مرة ان « ا . م . باشا » لا يزور القصر منذ عهد بعيد . فقال دولته : ذلك ياصاحب الجلالة لانه استأذن في مقابلة جلالتكم فقيل له انكم لا تستقبلونه حتى يكتب براءة من الوفد ! فقال جلالة الملك : أني لا أعلم هذا . قال الزعيم : ان هذا ما سمعه الباشا من بعض موظفي الديوان

ومن طرائفه في فضل الصراحة والاستقامة نادرة قصها عليَّ في ساعة كان فيها مستريح الخاطر وادع الفؤاد ، قابلته على أثر اجتماع المؤتمر الوطني وتقرير الانتخاب الباشر فسألني سؤاله المعتاد : ما أخبارك ؟ أو ما قولك اليوم ؟

قلت : كلها أخبار خير يادولة الرئيس ، شيء لم يكن في الحسبان . قال دولته متهللاً : أوليس كذلك ؟ ثم أظهر ثقته بعناية الله وهي العناية التي كان يطمئن اليها في كل حال ويعتقد انها تلحظه وتلحظ الامة في جهادها الشريف . وقال : انها نتيجة لو توسلنا اليها بغير وسيلة القصد الصريح لما بلغناها

وتبسط للكلام كعادته حين يستريح بعض الراحة من همومه الكبيرة . فقال : ان استقامة القصد قلما تخيب عند مستقيم أو غير مستقيم ، اذكر انني كنت في مكتبي أيام المحاماة واذا بسيدة في زي نساء البيوتات تدخل المكتب وتحييني تحية الادب والاحتشام ، فأشرت اليها بالجلوس والتفت اليها بعد أن فرغت من عمل الحاضرين فسألتها : من السيدة التي شرفتني بهذه الزيارة ؟ قالت : محسوبتك ع . اسكندر . . . اسم امرأة من أصحاب البيوت المريبة المشهورة في ذلك الحين ، فما سمعت الاسم حتى ثارت ثائرتي وعجبت للوكيل كيف سمح لها بالدخول وكيف اختارتني هي لقضيتها أو للمسألة التي قصدتني لاجلها ، وخاطبتها بكلام قارص لم أرع فيه حق الانوثة . فلم تحر جواباً وتركتني أقول ما أريد . حتى اذا هدأت ثائرتي وسكت قالت لي : أتسمح لي بكلمة ؟ قلت تفضلي ! قالت : ان الناس اذا رأوني عندك في قضية كان هذا شهادة لك لا عليك . إذ لو كنت أنت من معارفي لما صدقوا انني أثق بك وأئتمنك على

المصالح . ولولا انك مستقيم لما جئتك اليوم ، والافان زواري المحامين كثيرون لم أفكر في واحد فيهم لأنني اعرفهم وفكرت فيك لانني لا أعرفك ولا أراك فيمن أراهم كل يوم

قال رحمه الله : فسمعت كلاماً أريباً ولباقة معجبة ، وسرتني هذه الشهادة بالسمعة الحسنة من صاحبة السمعة السيئة

(٥) الفكاهة والدعابة

كان البلاغ ينشر اسئلته التي تستند الى أوراق ومراسلات خاصة يتبادلها بعض الموظفين وبعض زعماء حزب الاتحاد . فأشيع يوماً أن قضية دبرت لاضطرار صاحب البلاغ الى التصريح باسم الرجل الذي ينقل اليه تلك الاوراق ، وحضرنا ليلتها مجلس الرئيس فسأل الباشا الاستاذ عبد القادر متهكماً : ما العمل ؟ ها أنت تسأل عن « سر مهنة » فماذا تجيب ؟ ثم قال : ما رأيك اذا كنت أنت تأخذ هذه الاوراق من رئيس الحزب نفسه ؟ ألا يصدقونك ؟ ومضى يقص علينا قصة وقعت له أيام المحاماة حين كان يتولى الدفاع عن موظف فصلته نظارة الحقانية بغير حق . قال : كانت النظارة مخطئة في فصله وأفتى قلم قضاياها باستحقاقه التعويض ووصلت الينا هذه الفتوى فاعتمدنا عليها في الدفاع . وحضر عن نظارة الحقانية رجل كانت فيه خفة وحذلقة فترك موضوع القضية وأراد ان يوجه اليّ تهمة الحصول على ورقة سرية . . . او بعبارة أخرى تهمة السرقة ! وكان رئيس المحكمة رجلاً ظريفاً فسألني وهو يتظاهر بالحيرة : ما العمل يا فلان ؟ ان مندوب الحقانية يتهمك فهل أنت مستعد للجواب ؟ قلت : نعم ! قال : من أين لك هذه الورقة ؟ هل أنت مستعد لذكر اسم الموظف الذي أعطاك اياها ؟ قلت : نعم بعد استئذان حضرة المندوب ! . . فصاح المندوب يرجو الرئيس ان يسألني لأجيب في الحال ويبادر باتخاذ الاجراءات ، قلت : اذن هو حضرة المندوب نفسه الذي أعطاني هذه الورقة جزاه الله خيراً . . . قال الرئيس الجليل : فوقع الرجل في حيص بيص . وخاف ان يبلغ الامر النظارة فتصدق التهمة ويلحقه العقاب ، فعاد يتلطف ويتملص ونحن نطاول في قضية الورقة ولا نريد ان نصرفها ، فاذا هو المتهم ونحن المطلوب منا السماح ! . .

هذا نوع من فكاهة الزعيم الكبير أو من الكيد الظريف الذي يسلطه على من يريد ان يحرجه فاذا هو داخل في الشبكة التي كان يريد أن يدخله فيها ، وللزعيم فكاهات كثيرة كهذه يعرفها من يتتبعون المناقشات في مجلس النواب

وجاءه مرة عمدة من أنصاره في ابان احتدام الخلاف بين الوفد والحكومة ، فشكا اليه العمدة انهم فصلوه ولم يجن ذنباً بعد أن قضى سبعة عشر عاماً في العمدية . قال الرئيس الجليل : وهل ذنب اكبر من ذاك ؟ أولم تسمع يا بك بعذر الرجل الذي طلق امرأته بعد عشرة طويلة في صفاء ووئام . طلقها فراحت تشكوه وتعتب عليه : ما ذنبي يا أبا فلان . أبعد خمس

وعشرين سنة تعمل هـذه العملة ؟ قال لها : مهلاً يا أم فلان ، وهل ذنب اكبر من خمس وعشرين سنة في عيشة لا تتغير !

هـذا نوع آخر من الفكاهة التي كان ذلك الرجل العظيم يسري بهـا الخطوب والشكايات حين لا تسري بغير هذه الوسيلة

وبشره يوماً أحد أصحاب الرؤى والاحلام بنجاح الوفد في الانتخابات . فقال رحمه الله : وماذا عليه ؟ ان أخفقنا لم نر له وجهاً وان نجحنا جاءنا يطلب البشارة . وحكى لنا حكاية جرت للشيخ جمال الدين الافغاني في سفينة خيف عليها الغرق العاجل . قال الرئيس : أخبرنا الشيخ انه لما رأى الصبية والنساء وضعاف القلوب في السفينة يضطربون ويهلعون ذهب يؤكد لهم أشد التوكيد ان سفينتهم لن تغرق في تلك السفرة ويقسم لهم انها لناجية بلا مراء ، قال الشيخ : وكان القوم يظنون فيَّ القداسة ويرونني بالعمامة الخضراء فيحسبونني من دراويش الهند الذين يكشفون الغيوب ويطلعون على أسرار المستقبل . والمسألة بعد مسألة حساب ، فان غرقت السفينة لم اجد منهم من يكذبني ، وان سلمت ظفرت بالقداسة من أقرب سبيل !

هذا نوع آخر من اطايب الحديث التي يستمتع بها من كانوا يحضرون مجلس الرئيس . فهم ابداً بين ملحة مرتجلة او نكتة بادرة اوفكاهة مستطرفة اوذكرة تساق في معرض الحكمة ويزينها ذلك الجلال الذي يحوط قائلها المهيب

(٦) الاخلاق الاجتماعية

طبيعة النضال هي أقوى اخلاق سعد التي نسميها بالاخلاق الاجتماعية ، فهو اخيا ما يكون قسماً إذا واتته مناجزة الحوادث والخصوم ، وقد يراه مريضاً متعباً بل قد يراه راقداً في فراشه ممنوعاً من الحركة والكلام فاذا نمى اليه نبأ يستجيش فيه تلك الطبيعة فالمرض منسي وان كان شديداً والتعب مطوي وان لاحت دلائله عليه ، وملكاته على ايقظ ما تكون إذا تحرك لمناقشة او دفاع

واظهر اخلاقه بعد ذلك الالفة وحب الاجتماع ، فهو يأنس إلى الناس ويعاني اطباؤه كثيراً في منعه من المقابلات والاحاديث ، لانه لا يستريح إلى العزلة ولا يطمئن الى السكون

وكان بفطرته يعنى بالرأي العام فيقرأ الصحف كبيرها وصغيرها ويحدثني احياناً عن مقالات نشرها البلاغ في صفحاته المهملة لكتاب غير مشهورين ولم التفت اليها . ويجد من وقته بعد كل هذا ما يفرغه لدرس الالمانية والانجليزية والاطلاع على كتب لم أكن أحسبه يحفل بالبحث في موضوعاتها . أذكر منها مؤلفات الامير كروبتكين في الاشتراكية وكتاب مصادر العقيدة الالهية للاستاذ سرتيلاني بالمعهد الكاثوليكي في باريس

وكان إذا سمع الغناء الجيد طرب له وتابع المغني بحركة الرأس وكلمات الاستحسان . ولكنه

في ايام الحركة الوطنية شغل عن السماع فكان لا يفرغ له مرة كل سنة او سنتين ولا يطلبه الا إذا عرض عليه بعض صحبه للترويح عنه

وكان يحب السعة في المعيشة وينكر على الاغنيـاء الذين يقتصدون فيخرج بهم الاقتصاد إلى الشح والتقتير

وكان مثـلاً في كرم الضيافة ورعاية الضيوف ، يسأل كلاً منهم عن نومه وراحته ويسأل الخدم عنهم اذا حال الاطباء بينه وبين مقابلتهم . ولحظ مرة على المائدة في مسجد وصيف ان أحدنا (فخري بك عبـد النور) لا يأكل من كل صنف فعلم انه صائم ، فأمر ان تصنع له الاصناف التي يأكلهـا الصائمون ، وكان يشاركه في التناول منها - مع صعوبة هضمها عليه - ليؤنسه ولا يشعره بالوحدة على الطعام

***

وأجدني قد أطلت ولا نهاية للقول في هذا الموضوع ، ثم لا أراني أعلمت الناس بخلق لم يكونوا يعلمونه من أخلاق تلك العظمة التي قربتها الالفة الى الاسماع والابصار . ولـكن لعلي عرضت الصورة عليهم في معرض من النور والظل غير الذي تعودوا ان يروها فيه ، ومجمل ما أقوله الآن أن بعض العظماء عيبهم الاقتراب منهم في الصفات التي اشتهروا بها بين الملأ واستحوذوا بها على الجاهير . أما سعد فقد كان الاقتراب منه يزكي تلك الصفات ويبديه في سمة هي أدعى الى الحب والاعجاب

عباس محمود العقاد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com